

بسم الله الرحمن الرحيم

نحو استراتيجية وطنية لإعداد دليل لخصائص الطفل السعودي

أ. د. عمر بن عبد الرحمن المفدى

ورقة عمل مقدمة لندوة الطفولة المبكرة الرياض ٢٦ - ٢٨ شعبان ١٤٢٥هـ

مقدمة :

عندما تطرح أسئلة مثل الأسئلة التالية :

ما الطول الطبيعي للطفل عند دخوله المدرسة ؟

طفل وصل إلى سن السنة والنصف ولم يستطع المشي بعد ، هل هو طبيعي ؟

كم عدد الكلمات التي يستطيع الطفل فهمها عند سن السابعة ؟

متى يدرك الأطفال مفهوم الأمس والغد ؟

في أي سن يبدأ الأطفال في إدراك مفهوم ثبات المادة ؟

متى يستطيع الأطفال تعلم الجمع والطرح ؟

ما متوسط سن البلوغ لدى كل من الذكور والإناث ؟

سيعتقد الكثيرون أن الأمر لا يتطلب سوى توجيه السؤال لأحد المختصين ، أو فتح أحد الكتب المتعلقة بالنمو ومن ثم الحصول على الإجابة .

لا شك أن الكتب المتخصصة قد تحتوي على إجابات على هذه الأسئلة وغيرها ، ولكن إلى أي مدى دقة هذه المعلومات وانطباقها على الطفل السعودي ؟

إن ما يقلق المتخصصين أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة وغيرها يعتمد إلى حد كبير على معايير اشتقت من مجتمعات تختلف عن المجتمع السعودي في عدد من الجوانب ، ليس الثقافي فحسب ، بل من حيث التركيب الجسمي الوراثي كالمجتمعات الأوروبية على سبيل المثال .

وهذا لا يعني عدم توافر بعض المعلومات المحدودة عن بعض خصائص الطفولة في المجتمع السعودي لا سيما ما يتعلق بالطول والوزن ، ولكن يؤخذ على تلك الدراسات أنها تمت بجهود فردية في معظمها من قبل بعض الباحثين وطلاب الدراسات العليا ، كما أن هذه الدراسات كانت محدودة العينات مما يجعل تعميم نتائجها أمراً صعباً .

ومما يلاحظ على تلك الدراسات أنها تعتمد على الطريقة المستعرضة (cross sectional) التي تعتمد على المقارنة بين مجموعات من الأطفال كل مجموعة تمثل سن معين ، وتتم المقارنة في وقت واحد ، بما في هذه الطريقة من قصور ، بينما تكاد تنعدم الدراسات الطولية المتتبعية

(longitudinal) التي تعبر عن دراسة النمو بشكل أدق ، إذ أنها تعتمد على متابعة مجموعة واحدة من الأطفال ذوي العمر الواحد لفترة معينة تمتد لسنوات .

ومما لا شك فيه أن البشرية تشترك في كثير من الخصائص مما يجعل هناك تشابها بين الأطفال في المجتمعات المختلفة ، ولكن يجمع المختصون أن هناك فوارق بين المجتمعات المختلفة تؤثر على خصائص النمو في كل مجتمع مما يجعل تعميم النتائج من مجتمع إلى مجتمع آخر أمرا غير مقبول .

وهذا ما أكدته الدراسات عبر الثقافية في النمو والتي وجدت فوارق بين الأطفال في المجتمعات المختلفة كالمجتمعين الأفريقي والأوربي يمكن ملاحظتها من الأيام الأولى بعد الولادة . وهذا ما يؤكد أهمية معرفة خصائص النمو ومعاييرها في كل مجتمع على حدة . وفي هذه الورقة يود الباحث أن يقدم تصورا حول مشروع خطة لمشروع بناء دليل أو قاعدة معلومات موثقة حول خصائص الطفل السعودي الجسدي منها والنفسي .

أهمية معرفة خصائص الطفل السعودي

يدرك المختصون وكثير من غير المختصين أهمية توفر دليل أو قاعدة معلومات عن خصائص الطفل السعودي تشمل الجوانب المختلفة مثل الجانب الجسدي ، الجانب العقلي ، الجانب الانفعالي ، الجانب اللغوي . إلى غير ذلك من الجوانب . ويمكن تلخيص أهمية ذلك في النقاط التالية :

- ١ - أهمية علمية في توفير رصيد من المعلومات الدقيقة حول الطفل السعودي .
- ٢ - تسهيل التعامل مع كل سن بما يناسبها ، فبمعرفة تلك الخصائص يمكن للمتعاملين مع الطفولة أن يجد ما يناسب كل سن ، سواء كان ذلك تعاملًا مباشرًا ، أو من خلال المناهج التي تصمم للأطفال ، ومن ذلك على سبيل المثال اختيار الألفاظ التي تناسب كل صف دراسي ، واختيار مفردات كتب الرياضيات بناء على المستوى الإدراكي الذي يحرزه غالبية الأطفال في سن معين .

- ٣ - التعرف على حالات الخلل في النمو بشكل عام أو في بعض الجوانب بناء على مقارنة هؤلاء الأطفال بالمعايير العامة لتلك الصفات ، وبالتالي التدخل المبكر لعلاج تلك الحالات .

- ٤ - التنبؤ الدقيق بما يتوقع أن يكون عليه بعض الأطفال ، وذلك من معرفة مدى بعدهم أو قربهم من المتوسط في خاصية من الخصائص . فمن خلال مقارنة بعض الأطفال بالمعايير العامة يمكن اكتشاف بعض حالات التفوق والموهبة عند بعض الأطفال من سن مبكرة .

خطة بناء الدليل

كما أسلفت في مقدمة هذه الورقة فإن قيام دراسات متفرقة فردية لا يفي بتحقيق هذا الهدف ، فالدراسات الفردية تقتصر إلى الإمكانات التي تتطلبها الدراسات الطولية المتتبعية التي ينبغي أن تكون لها الأولوية ، كما أن الدراسات الفردية غالبا ما تنحصر في عينات محدودة في مناطق محدودة أيضا مما لا يحقق القيمة الوطنية لتلك الدراسات .

حتى لو قام باحثون مختلفون بإجراء دراسات مختلفة في المناطق المتعددة من المملكة فإن ذلك فإن المشكلة ستكون في مدى تطابق الإجراءات وبالتالي إمكانية توحيد المعلومات من تلك الدراسات وبالتالي الخروج بمعايير وطنية .

وقد يرى البعض أنه يمكن أن توحيد الإجراءات وتوحد أدوات القياس بحيث يطبق الباحثون وطلاب الدراسات العليا في المناطق المختلفة تلك الإجراءات والأدوات . ولكن المشكلة في مدى قبول الباحثين بذلك ومدى قبول الأقسام العلمية بتلك الدراسات من طلبة الدراسات العليا لديها . ففي الحالة الأولى والتي غالبا ما يكون الباحثون من أساتذة الجامعات سيتردد الكثيرون منهم على القيام بتلك الدراسات ليس بسبب كلفتها فحسب وإنما بسبب كونها تكرارا لدراسات في مناطق أخرى لا يرى فيها عضو هيئة التدريس إضافة علمية تحتسب لها عند تقويم أبحاثه للترقية .

أما الأقسام العلمية فقد لا تقبل من طلبة الدراسات العليا لديها القيام بمثل تلك الدراسات المكرورة الجاهزة التي لا تختلف سوى في العينة لأنها لا تبين جهد الطالب في تصميم إجراءات البحث وإعداد أدواته . وغير ذلك من الأمور .

لذلك فلا بد من تبني مشروع وطني لوضع خطة متكاملة لإعداد مثل هذه القاعدة أو الدليل تضمن الخروج بنتائج دقيقة ومعايير وطنية يمكن تعميمها على المناطق المختلفة . هذه الخطة يمكن أن تكون أبرز ملامحها في الفقرة التالية .

خطوات بناء الدليل أو القاعدة :

١ - تحديد جهة عليا واحدة تختص بالطفل السعودي تتولى هذا المشروع الوطني وتتفرغ له . تزود بالباحثين والمختصين والمستشارين في مجال الطفولة ، يكون لها ميزانية مستقلة .

٢ - تكون مهمة هذه الجهة ما يلي :

أ - وضع الأولويات فيما يتعلق بالخصائص التي لها الأهمية الأكثر في إيجاد معايير لها .

جمع ما تم من دراسات حول الطفل السعودي .

ب - وضع خطط لإجراء دراسات طولية تتبعية لعينة وطنية من الأطفال في كافة مناطق المملكة لتحديد معايير وطنية للخصائص التي تم اختيارها ، مع تحديد الإجراءات والمقاييس المستخدمة . وتخصيص ميزانية .

ونظرا لأن مرحلة الطفولة تمتد ما يقارب الاثني عشر عاما ، مما يترتب عليه استغراق تلك الدراسات الطولية أكثر من هذه المدة فيمكن تقسيم تلك الدراسات إلى فئتين : دراسة يتم فيها تتبع النمو لدى عينة من الأطفال من الميلاد وحتى إكمالهم سن السادسة ، ودراسة أخرى متزامنة مع الدراسة الأولى يتم فيها تتبع النمو لدى عينة من الأطفال من بداية سن السابعة وحتى البلوغ الذي يعد نهاية الطفولة والذي يكون في المتوسط بين سن الحادية عشرة والرابعة عشرة مع فروق بين الذكور والإناث في ذلك .

ج - تكليف فريق بحث من المتخصصين في الجامعات السعودية ومراكز الأبحاث للقيام بتلك الدراسات .

ملاحظات

الدراسات الطولية التتبعية التي يتم فيها متابعة نفس العينة عبر نموهم تعد أكثر دقة من الدراسات المستعرضة التي تتم فيها مقارنة مجموعات من الأطفال في سنين مختلفة . والدراسات الطولية تعد جديدة على مجتمعنا السعودي نظرا لصعوبة القيام بها من قبل أفراد نظرا لما تتطلبه من وقت وجهد وتكاليف مادية .

إلا أن الدراسات الطولية لها اعتبارات خاصة لا بد وأن تؤخذ بالاعتبار حتى لا يؤثر ذلك على صحة النتائج التي تخرج بها ، هذه الاعتبارات - المعروفة في ميدان دراسات النمو - قد لا يكون من المناسب ذكرها هنا .

كما أنها تتطلب عددا من الباحثين ومساعدتي الباحثين ، وتكاليف أكثر مما هو معهود في الدراسات التقليدية .

لمزيد من الإطلاع على طرق دراسة النمو والمقارنة بينها يمكن الرجوع للمراجع التالية :

- Bornststein ,Marc ; Lamb ,Michael (editors) 1992 , Developmental Psychology . Lawrence Erlbaum Association . London .

- صادق ، آمال و أبوخطب ، فؤاد (١٩٩٠) . نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين . الأنجلو المصرية ، القاهرة .

- المفدى ، عمر (١٤٢٣هـ) علم نفس المراحل العمرية : النمو من الحمل إلى الشيخوخة والهرم . الرياض